رواية "الغيث" لمحمد ساري
وتناصها مع التراث الديني

سعيد سلاّم

جامعة الجزائر

عرفت الساحة الأدبية الجزائرية في المدة الأخيرة ظهور رواية جديدة للكاتب محمد ساري "الغيث". وقد نشرتها له دار البرزخ بالجزائر 2007، في مائتين وتسعة وخمسين صفحة من الحجم المتوسط. وهي الرواية السادسة له[1]. يتطرق فيها الكاتب إلى التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية للجزائر في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي، وما تمخضت عنها من وقوع أحداث مأساوية بسبب تدهور أوضاع الجزائر في تلك الفترة. وعلى الرغم من أنّ الرواية تعالج قضايا كثيرة لا سبيل لبحثها جميعا في هذه الدراسة، فإننا آثرنا أن نقتصر فيها على الجانب الديني الذي تناص الكاتب مع مختلف عناصره وتداخل مع شتى جزئياته. كما حاول أن يغري المتلقي بالإقبال على قراءة الرواية باصطناع كثير من التقنيات السردية المستجدّة، وشتى الصور البيانية والبلاغية المناسبة خدمة لموضوع الرواية.

تدور أحداث الرواية في مدينة عين الكرمة بالغرب الجزائري، وتحتوي على ثلاث حكايات: الأولى خاصة بالشيخ امبارك وزوجته نايلة وابنتها ليلى، والثانية خاصة بسي اعمر حلموش وعبد القادر كروش وقدور بن موسى. والثالثة خاصة بالمهدي بطل الرواية.

في الحكاية الأولى: الأب امبارك شيخ كهل كان خادما للولي سيدي المخفي، أحد أحفاد الرسول (ص) في أعالي جبال الونشريس،

ثم يصبح سيدا لمقامه وزاويته بعد وفاته. فتقصده النسوة لاعتقادهن في امتلاكه لسرّ إحياء الموتى والإخصاب للنساء العواقر. ذات يوم يرى الشيخ امبارك الشابة نايلة التي اغتُصبت أثناء الثورة فهربت من قريتها، تنحني على ضريح سيدي المخفي تتوسّل ببركته وتدعوه الحماية، فيعاملها الشيخ بلطف وأدب، وتتوطد العلاقة بينهما، ثم تؤدي إلى زواجهما وتثمر عن ولادة المهدي، لكنه بمرور الزمن تتغيّر معاملة الشيخ لزوجته نايلة بسبب نفورها منه، لامتناعه عن الإذن لها بالاشتغال في بيت إحدى العائلات الغنية، وكذلك بسبب دخول سي اعمر حلموش في حياتها، منذ أن استنجدت به حين أُخذ الشيخ من قِبل مجاهدين من البيت لذبحه في الغابة، بتهمة الوشاية بمجاهدين جريحين اختبآ في زاوية سيدي لْهَنّي، فيتدخل سي اعمر وينقذه من الذبح، وتتوطد العلاقة بين سي اعمر ونايلة منذ ذلك الوقت، حيث أصبحا يلتقيان خفية في الغابة القريبة من مسكنيهما. فينشب شجار بين الشيخ وزوجته ينتهي بتطليقها. وعندما تحاول أخذ ابنها المهدي الذي كان له من العمر ثلاث سنوات، يضربها ويفتكّه منها بالقوة، فتخبره بأنه ليس ابنه من صلبه. وتذهب إلى المدينة وتشتغل خادمة في بيت لالة مريم. وفي أحد الأيام، يغتصب الجيلالي التاجر نايلة أثناء غياب زوجته مريم عن البيت، وتستمر العلاقة السرية بينهما إلى أن تحمل نايلة منه، فيعطيها مبلغا من المال لإجهاض الجنين بمدينة وهران، ويأمرها بكتمان السرّ عن زوجته، وألاّ تعود إليه مرة أخرى. وفي المستشفى تنجب ابنتها ليلى.

وفي المدرسة كان التلاميذ يضربون ليلى ويسمّونها بنت الحرام، فتكره المدرسة وتتغيّب عن حضور الدروس فتُطرد منها. ثم تتعرّف على الأكحل الفرطاس، البائع المتجوّل، فتدعوه إلى البيت لتعرّفه بأمها فيبوح لهما بمشاريعه التجارية. وفي إحدى زياراته إليهما يغتصب ليلى

أثناء غياب أمّها عن البيت. وتتكرّر اللقاءات السرية بينهما، إلى أن تُلقي الشرطة القبض على الأكحل بسبب مشاركته في سرقة المحلات التجارية بالمدينة، وتحمل منه مولودًا ثم تضعه في المستشفى. وفي هذه الأثناء يقرر المهدي مع جماعة الإخوان المسلمين إحراق بيت العجوز نايلة عقابا لها ولابنتها ليلى الزانية، فيضرمون النار في البيت ومن فيه وهم نائمون، فتخرج إليهم ليلى هاربة فيوثقونها في جذع شجرة، ويشرعون في ضربها مائة جلدة ولكنها تفارق الحياة قبل تنفيذ الحكم فيها.

وأما الحكاية الثانية فملخصها أن سي اعمر حلموش تربّى في كنف والده بعد أن ماتت أمّه بعد ولادته. وفي أحد الأعراس التي أحيتها المغنية الرميتي الغيليزانية في المدينة يقتل العريف علي التبسّي بخنجره بسبب منافسته له في حبّ الراقصة يامنة، فيختبئ قرب زاوية سيدي امحمد المُغيث المنسية في أعالي جبال الونشريس. وعند قيام الثورة يتمكن من قتل أحد المعمرين الفرنسيين بالمدينة ويأخذ بندقيته بمساعدة صديقين له، ويلتحق بالثوار في الجبال. ويخوض معارك ضارية ضد الاستعمار. وغداة استقلال الجزائر يستولي بالقوة على بيت المعمر الفرنسي بالمدينة المسمّى بحوش الرومي، كغنيمة من غنائم الانتصار، وينقل إليه عائلته من القرية. وأصبح يتخذ من تحت شجرة الزيتون الهرمة بالحي مجلسه، ويردد على مسامع الشباب معجزة الثورة ويشيد بأسطورتها باعتباره أحد صانعيها.

أما عبد القادر كروش، فهو شاب كان يُدمن على السكر والعربدة منذ أن كان مغتربا بمدينة مرسيليا بفرنسا، لكنه على إثر حدوث الزلزال المهول الذي ضرب المدينة يخرج من المخمرة مفزوعا ويتوجّه فورا إلى المسجد، ويداوم على أداء الصلوات فيه مع ارتداء

اللباس الإسلامي من قميص وشاشية بيضاء. ويتقرّب من المهدي إلى أن يصبح عضوا في جماعة الإخوان، ثم سرعان ما يراوده الحنين إلى مارسيليا وإلى الأيام التي كان يتردد فيها على الحانات، فيتسلّل إلى مخمرته المفضلة في الحيّ الصناعي خارج المدينة، وفجأة يقف على رأسه جماعة الإخوان وعلى رأسهم المهدي فيأخذونه إلى حوش مهجور فيؤدّبونه بضرب (الفلقة) على رجليه، ثم يتركونه لقضاء الليل في مخزنه مقيّد الرجلين واليدين. وفي الصباح يأخذونه إلى المسجد ويلقي المهدي خطبة في منع الإسلام للخمر ومصير المرتدين عن الدين.

وأما قدور بن موسى فهو شاب يحمل شهادة الليسانس في الفلسفة عاطل عن العمل، يُضطهد من قبل والده ـالمتعجرف والفقير وزوجته الولودـ بسبب ركونه للكسل، فتصيبه لوثة جنون حيث صار يسلك سلوك المعتوهين. ويتخلّى عنه جماعة الإخوان لعدم انضمامه؛ إليهم ويتهمونه بالزندقة والإلحاد، فيدفعه كل ذلك إلى الانتحار شنقا.

أما الحكاية الثالثة: فبطلها المهدي الذي أشرف الشيخ امبارك قيّم مزار سيدي المخفي على تربيته بعد أن طلّق أمّه نايلة. فبعد موت الشيخ ، يذهب المهدي إلى المزار بحثا عن العزلة والتأمل في السرّ الموجود داخل الضريح الذي حدّثه عنه والده الشيخ قبل أن يموت بمرض السرطان. وبينما هو غارق في تأملاته داخله يرى فأرا يخرج من ثقب بالضريح وعلى ظهره قصاصات من ورق أصفر، فينبش داخله فيعثر على مخطوط صغير كان والده الشيخ قد حدّثه عنه، معتقدا أنه ينطوي على سرّ أو معجزة ما ولكنه وجده يتحدث عن سيرة إبراهيم بن عبد الله الصوفي، الذي ذهب من الكوفة إلى مكة مشيا على قدميه من دون زاد مدّة أربعة عشر عاما، كرامة من الله عليه،

فيقرّر المهدي أداء مناسك الحج اقتداء بهذا المتعبّد، ويذهب إلى مركز الحدود الجزائرية الشرقية، ويحاول اجتيازها، فيمنعه رجال الشرطة من ذلك لعدم امتلاكه جواز سفر. ويجد هناك الشاب سليمان مرواني، ابن بلدته الذي يُمنع هو الآخر من السفر إلى إحدى دول النفط للعمل بها، لعدم امتلاكه بطاقة الخدمة الوطنية. وبعد عودتهما إلى عين الكرمة يلازمان مسجد سيدي عبد الرحمان، ويتّهمان إمامه سي عبد الحق الزيتوني بالشيوعية، وينشقّان عنه. ويصلي المهدي بجماعته في المسجد على انفراد. ثم يطلب من سليمان بإحضار ناقة من الصحراء لتحديد موقع المسجد الذي سيبنونه، إتباعا لسنة الرسول (ص). فيذهب سليمان بشاحنة والده إلى الصحراء ليأتي بالناقة. وعند عودته بها يترك جماعة الإخوان الناقة تسير بمشيئتها في المدينة إلى أن تحثم في مكان ظليل بمدخل السوق، فيعتبره الجماعة المكان الذي اختارته العناية الإلهية لبناء مسجدهم المبارك. ولما طلبوا من السلطات المحلية بناء مسجد فيه رفضت طلبهم، فاعتصموا به، لكن قوات الأمن الخاصة تهجُم عليهم ليلا وتقبض عليهم وتزجّ بهم في السجن. وبعد إطلاق سراحهم يذهب المهدي إلى مسجد سيدي عبد الرحمان ويمنع إمامه سي عبد الحق من إمامة المصلين فيه، وينصّب نفسه إماما له.

وفي أحد الأيام يسترعي انتباه المهدي مجموعة من المخطوطات كانت موضوعة فوق رفوف المسجد، فأخذ يطّلع عليها، وإذا به يجد من بينها مخطوطا بعنوان : *"الكرامات في حياة المهدي بن تومرت"*[2] منسوخا بخط عبد الرحمان بن محمد في القرن العاشر الهجري، مع تعليقه عليه في حواشيه، وهو صاحب مسجد المدينة. وقد أبدى المهدي كرها شديدا لتعليقاته على حياة بن تومرت المتصوف الجليل الذي أُعجب به، واتخذه منذ ذلك الوقت شيخه الروحي ومثله الأعلى، وأطلق اسمه

على مسجد المدينة الذي يشرف عليه. وحرص على متابعته لأخبار رحلته إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وتنقلاته بين المدن المغربية والجزائرية بغرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد شنّ فيها حملات ضد ألوان الفن وإحياء الحفلات الموسيقية وفنون الرقص والغناء وكل أنواع "الانحراف" الأخرى.

ويتحدّث عن معرفته باستعمال الحيلة والمكر للوصول إلى أغراضه في بعض الأحيان. ويخصّص دروسه المسجدية في سيرة ابن تومرت، فيطيل فيها؛ شارحا ومفصلا ومعلقا. ثم يشرع في تطبيق حكم الشريعة الإسلامية بمحاولة قطع يد الشاب الذي سرق حذاء بالمسجد، وتأديب عبد القادر كروش بالضرب على رجليه لسكره وعربدته، والإفتاء بجمع أجهزة التلفزة والآلات الموسيقية في المسجد ثم حرقها، بسبب ما تحدثه من تأثير سيء يؤدي إلى انحراف الشباب. كما يأمر جماعة الإخوان بحرق بيت أمّه العجوز نايلة وبجلد ابنتها ليلى بسبب جريمة الزنا حتى الموت. كما تهاجم الجماعة الإقامة الجامعية المشبوهة لتطهيرها من الطلبة الماركسيين الشيوعيين، وتطهير المدينة من مظاهر الخلاعة والعرى والانحراف. ويمنعون عرض مسرحية كاتب ياسين *"محمد خذ حقيبتك"* بنادي الطلبة ويخرجونهم من قاعة العرض بالقوة. ويذهب المهدي مع الجماعة إلى مبغى المدينة، ويلقي خطبة على الشباب الذين كانوا ينتظرون دورهم في الطوابير. فيأمرهم بالابتعاد عن بيوت الزنا والفساد؛ لأنها معبد الشيطان، ولأنها سترمي بهم في نار جهنم. ثم يخرجهم مع جماعته بالعصي والهراوات.

ويلتقي سليمان مرواني بمهندس الفيزياء القادم من لندن في المسجد، ويخبر سليمان بإمكانية إحداث معجزة عن طريق اكتشافات التكنولوجيا

ككتابة اسم "الله" في السماء. فيحثّه سليمان على تحقيق هذا الحادث العجيب لينسبه إلى نفسه. وعندما ينضج المشروع يرى الناس المعجزة في الملعب. ويتوصّل المهدي بعد تأمّل وتفكير إلى أنّ معجزة ابن تومرت هي الأخرى حيلة أو معجزة مزوّرة أيضا مثل أحداث معجزات التكنولوجيا المزعومة. ويدفعه ذلك إلى البحث من جديد عن معجزته الخاصة به وهي إيجاد سرّ يدخله النفق المؤدي إلى مكة، والموجود داخل ضريح سيدي المخفي الذي جاء منه إلى مدينة عين الكرمة. هذا ما حدّثه عنه والده الشيخ امبارك مرارا. فيدخل إلى الضريح وينبش بخنجره في عمقه، مفتشًا ومنقّبًا عن هذا السرّ، لكنه لم يعثر على أي شيء يدلّ عليه سوى جمجمة الولي وعظامه. فتثور ثائرته من هذه الخيبة، ويفقد صوابه ويأخذ في الصياح والصراخ كالمجنون، ويضرم النيران في الضريح حتى تحترق بنايته بأكملها ثم يختفي في الغابة. وبهذا المشهد تنتهي فصول الرواية.

في هذه الدراسة نحاول تطبيق المصطلح النقدي المعروف بالتناص (Intertextualité) وهو تداخل النصوص وتحاورها فيما بينها التي تعرّفه جوليا كريستيفا بقولها: "إنّ أي نص هو عبارة عن لوحة فُسَيفُسائية من الاقتباسات. وإنّ أيّ نص هو امتصاص وتحويل لنصوص أخرى"[3]. وقد فرض هذا المصطلح نفسه في العصر الحديث إلى الحد الذي أصبح فيه معبرا إجباريا لكل تحليل أدبي.

وفي هذا الشأن سنستعين في دراسة تناص رواية محمد ساري مع التراث الديني بمشروع جيرار جينيت المتميّز في تقسيمه للنصوص وعلاقاتها فيما أسماه بالمتعاليات النصية (Transtextualités)، حيث يعرّفها بصورة مجملة بأنها: "كل ما يجعل نصا ما يتعلق بنصوص أخرى بشكل

مباشر أو ضمني"[4]. ويحدّد تبعا لهذا التعريف خمسة أنماط من المتعاليات النصية، وهي: التناص (Intertextualité) والمناص(Paratexte) والميتانص (Métatexte) والنص اللاّحق(Hypertexte) ومعمارية النص (Architexte)[5]. وقد خصّص لهذه المتعاليات كتابا كاملا أسماه طروس (Palimpsestes). ويُعدّ التناص حسب هذا التقسيم الجديد نوعا واحدا من هذه المتعاليات، ونحن سنعتمد في دراستنا على تقسيم (جينيت) للتناص، وعلى وجه الخصوص: الاستشهاد (Citation)، والاقتباس (Emprunt)، والايحاء (Allusion).

أشكال التراث الديني وتناص رواية "الغيث" معه

إنّ عنوان رواية "الغيث" يدخل ضمن المناص، أو النص الموازي (Paratexte) حسب تقسيم (جينيت) لأنماط المتعاليات النصية، فهو "بمثابة الرأس للجسد، بمعنى أنّ الجسد لا يعدو أن يكون سوى تمطيط لهذا الرأس"[6]. ولهذا فهو بوابة النص التي لا يمكن للقارئ أن يعبره دون المرور بها. وعنوان الرواية يشير بوضوح إلى النص الديني، حيث إنّ كلمة "الغيث"، تعني المطر والكلأ الذي يَنبُت من ماء السماء[7]. وقد جاء ذكر هذه الكلمة في القرآن بهذا المعنى ثلاث مرات، الأولى في قوله تعالى: ﴿إنّ الله عنده علْمُ الساعة ويُنْزلُ الغَيْثَ ويَعْلَم ما في الأرْحَام﴾ (لقمان، آية 34) والثانية في قوله: ﴿وَهُو الذي يُنْزلُ الغَيْث من بَعْد ما قَنَطُوا ويَنْشُرُ رَحْمَته﴾ (الشورى، آية 28). ، والثالثة في قوله: ﴿كمَثَل غَيْث أعْجَبَ الكفَّار نباتُه ثم يَهيجُ فتَرَاه مُصفَرّا ثم يكون حُطَاما وفي الآخرَة عَذَابٌ شَديدٌ﴾ (الحديد، آية 20).

فالنص الديني كما هو معروف بمصادره القرآنية والأحاديث النبوية والقصص الدينية يُعدّ المرجعية الثقافية والاجتماعية والفكرية

لأبناء المجتمع العربي. وقد حظيت باهتمام عدد كبير من الروايات العربية ـومنها رواية "الغيث"ـ التي نحن بصدد دراسة تناصّها مع النص الديني على مستويات عديدة، كتوظيف البنية الفنية، واستحضار الشخصيات الدينية، وتصوير شخصية البطل في ضوئها، وبناء أحداث الرواية في ضوء أحداث القصة الدينية. ولعلّ من بين الدوافع التي جعلت الكاتب يجنح إلى التداخل مع النص الديني هي أنّ قسما كبيرا من التراث الديني هو تراث قصصي، لذا وجد فيه ضالته في العودة إليه وفي الإفادة من موروثه السردي لتأسيس روايته.

وبما أنّ التراث الديني يُعدّ جزءًا من المرجعيات الموروثة للأمة، فإنّ أي معالجة للتراث الديني هي معالجة للواقع العربي وقضاياه عامة والمجتمع الجزائري على وجه الخصوص. وسنبحث فيما يلي الأشكال التراثية الدينية في الرواية من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، تطبيقا لتقسيم (جينيت) للتناص على وجه التحديد إلى استشهاد واقتباس وإيحاء كما سبق.

أولا: الاستشهاد (Citation)

عبارة عن خطاب منقول من نصوص سابقة تشكّل عوالم دلالية مختلفة[8]. فهي مستقلة عن النصوص اللاحقة؛ ولذلك فهي توضع عادة بين هلالين أو تُكتب من دون تنصيص. وتكون لها وظيفة الإيضاح أو الشرح والتوسع أو البرهنة والتأكيد على ما جاء في النص المرجعي. وهذا النوع من الاستشهاد هو الشكل الأكثر وضوحا في التناص.

القرآن: يرد الاستشهاد بعدد من الآيات القرآنية بشكل مكثّف عبر نسيج رواية "الغيث". ونظرًا لكثرتها وضيق المقام نقتصر على ذكر الآيات التي تكرّر ذكرها في الرواية أكثر من مرة، والتي نجمل الكلام عنها في الجدول الآتي:

المقطع السردي الروائي	المقطع السردي القرآني	الوظيفة
1. ﴿لا يكلّف الله نفسا إلاّ وُسْعَها﴾. صفحات: 14، 185، 245	﴿لا يكلّف الله نفسا إلاّ وُسْعَها﴾. البقرة،آية 286.	إيضاح الفكرة لإنتاج دلالة جديدة.
2. ﴿صُمّ بُكْم عُمْيٌ فهم لا يعقلُون﴾ صفحات: 23، 97، 227	﴿صمٌّ بُكمٌ عُمْيٌ فهم لا يعقلون﴾ البقرة، آية 171	دعم قول المتكلم وتأكيده
3. ﴿لاَ خَوفٌ عليْهم ولاَ هُم يَحْزَنُون﴾ صفحتا 14 ـ 185	﴿لهم أجرُهُم عند رَبّهم ولاَ خَوفٌ عليهُم ولا هُم يَحزَنُون﴾ البقرة، آية 277	تدعيم لكلام الراوي وتأكيده
4. ﴿الزَّانيَةُ والزّاني فاجلِدُوا كلّ واحد منهُما مائةَ جَلْدَة ولا تأخُذكُم بهما رأفَة﴾. ص 244	﴿الزانيةُ والزّاني فاجلِدُوا كلّ واحد منهُما مائَة جَلْدة ولا تأخُذكُم بِهمَا رَأْفَةٌ﴾. النور، آية 2	تأكيد الفكرة وتثبيتها

إنّ أول ما يُلاحظ على هذه الشواهد الأربعة هو محافظة الكاتب فيها على شكلها الأصلي الحرفي من دون أن يُحدث فيها تغييرًا كبيرًا يُذكر، سواء من حيث التركيب والصياغة أو من حيث المضمون والدلالة. وقد وظّفها في الرواية للبرهنة على أفكاره وتأكيده لها سردًا وحوارًا.

الحديث النبوي : يُعدّ الحديث النبوي كما هو معروف الأصل الثاني من أصول التشريع الإسلامي بعد القرآن في بلاغته وبيانه وأهميته كنص شرعي، وقد كان الاستشهاد به قليلا في الرواية، ومن أمثلته نذكر:

نص الرواية	نص الحديث	الدلالة
1. "صلاة الاستسقاء" صفحة 147، 148	"خرج رسول الله (ص) يوما يستسقي فجعل إلى الناس ظهره يدعو الله واستقبل القبلة وحوّل رداءه ثم صلى ركعتين"[9]. صحيح مسلم، ج 1، ص 354.	إيراد الكاتب لنص الحديث للمشابهة بين انقطاع الغيث في عهد الرسول (ص) وقيامه بأداء صلاة الاستسقاء، وبين انقطاعه في مدينة عين الكرمة، ودعوة المهدي الناس للقيام بهذه الشعيرة الدينية المتوارثة
2. "مؤشرات قيام الساعة" ص 248	"من أشراط الساعة أن يقلّ العلم ويظهر الجهل ويظهر الزنا ويُشرب الخمر وتكثر النساء ويقلّ الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيّم الواحد"[10]. صحيح البخاري، ص 21	اعتبر سكان مدينة عين الكرمة ظهور شكل اسم "الله" في سمائهم واقعة عجيبة ومؤشرا من مؤشرات قيام الساعة، التي تحدثت عنها كتب الحديث والسيرة النبوية. مع العلم أنها مجرد ألعاب نارية وهي من مكتشفات التكنولوجيا في العصر الحديث.

1. إن اختيار المهدي لإقامة صلاة الاستسقاء في البطحاء المحاذية لمزار ضريح سيدي المخفي، يرمز إلى احترامه لمشاعر الناس في الإيمان بالأولياء والصالحين واعتقادهم في كراماتهم ومعجزاتهم.

وأنّ التوسل للخالق وإطلاق الأدعية من هذا المكان سيليّن قلبه ويدفعه إلى إنزال رحمته، فيروي عطش أرضه وعباده المستغيثين وهي المعجزة التي طالما انتظرها الجميع.

2. إنّ الكاتب يستحضر النص الديني الخاص بأشراط قيام الساعة ليؤكد به على بوادر ظهور مؤشرات حدوثها في بيئة مجتمع الرواية، وهي تعكس أوضاع الجزائر المتردية خلال سنوات العنف والإرهاب.

ثانيا: الاقتباس (Emprunt)

يُطلق هذا النوع من التناص على كلّ أخذ من نصوص الغير دون التصريح به أو من غير تنصيص كوضعه بين قوسين، وهو لذلك يُعدّ سرقة[11]. والقارئ يعوّل في هذه الحالة على ذاكرته وثقافته في اكتشاف هذه البنيات التراثية، ويُعمل فكره ذفي البحث عن مدى أمانة الكاتب في المحافظة على أصلها أو بتحويلها حيث، ينصرف بها إلى غير ما وُضعت له من دلالة.

وعموما: "فالاقتباس يتضمّن الدعوة إلى توسيع القراءة ومجال الثقافة، والتعرّف على عوالم نصية أخرى، واستكناه تجارب الآخرين في كتاباتهم وغير ذلك مما يمكن أن يمثّل توجيها غير مباشر من المبدع إلى المتلقي. وبهذا يتجاوز التفاعل النصي العام وظيفة توسيع المتن إلى وظيفة فعل ثقافي على مستوى أعْلى وتأثير أكبر"[12]. وفي هذا الشأن سنبحث تناص رواية "الغيث" مع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية:

القرآن: ورد الاقتباس من القرآن قليلا في الرواية إذا ما قورن بالاستشهاد ـ كما تقدم ـ ونذكره في الجدول الآتي:

المقطع السردي الروائي	المقطع السردي القرآني	المقصود بالاقتباس
1. "أتى الغيث مدرارًا". صفحتا 12، 13	"وهو الذي يُنزّلُ الغيْث من بعد ما قَنَطُوا ويَنْشُرُ رحمتَه وهو الوليّ الحميد" الشورى، آية 28	الغيث
2. "فلا تدري نفس أين وكيف تموت"، ص 210	"وما تدْري نفْسٌ بأيّ أرْض تَمُوت" لقمان، آية 34	"لا تدري نفس" و"تموت"

1. يصور الكاتب في اقتباسه : "أتى الغيث مدرارًا" الأمطار الغزيرة الطوفانية التي هطلت على الجزائر في السنوات الماضية، والتي تسبّبت في إلحاق أضرار بليغة في الأرواح والعتاد. وقد تناص مع النص القرآني في الموضوع من دون تنصيص أو تصريح به، تدعيما لهول هذا الحدث وتعزيزًا له.

2. يقتبس الكاتب في نصه الثاني من القرآن من دون تنصيص أو تصريح بذلك. وقد حافظ فيه على السياق الأصلي دلاليا مع التعديل فيه من حيث التركيب والصياغة. فالمهدي كان يؤمن بالآية القرآنية إلى الحدّ الذي جعله يحمل معه كفنه باستمرار في كل جنازة، ويوصي أصدقاءه بتعجيل دفنه إذا داهمه الموت في كل لحظة. وهذا النوع من التناص يسهل الاهتداء إليه، ومعرفة مصدره دون عناء.

الحديث النبوي: إن تناص الكاتب مع الأحاديث النبوية محدودة إذا ما قورنت بتناصه مع الآيات القرآنية، ونوضح منها ما جاء على سبيل الاقتباس في الجدول الآتي :

نص الرواية	نص الحديث النبوي	الدلالة
1. "من ستر مؤمنا ستره الله في الدنيا والآخرة". ص 105	"لا يستر عبدٌ عبدا في الدنيا إلاّ ستره اللهُ يوم القيامة". صحيح مسلم، ج 2، ص 432	تكتشف لالة فطومة نـــايلة زوجة الشيخ امبارك علاقتها المشبوهة بسي اعمر حلموش، وتسوق المتناص، والتي تعترف فيه ضمنيا بخطيئتها
2. " النساء ناقصات عقل ودين ". ص 235	" يُروى عن رسول الله (ص) أنه قال: يا معشر النساء تصدّقن وأكثرن الاستغفار فإنني رأيتكن أكثر أهل النار. فقالت امرأة منهن جزلة وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير. وما رأيتُ من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لبّ منكنّ. قالت: يا رسول الله وما نقصان العقل والدين؟ قال: أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل. فهذا نقصان العقل. وتمكث الليالي ما تصلي وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين". صحيح مسلم، ج 1، ص 48	يسوق الكاتب الحديث على لسان المهدي الذي يشنّ حملة على ذوي السلوكات المنحرفة من النساء، إذ يعتبرهنّ سبب فساد المجتمع ويدعم رأيه ويؤكده بالمتناص

1. إنّ إنطاق الكاتب لنايلة اليتيمة، التي ضبطتها لالّة فطومة الجارة لها تخرج من الغابة يوما مع سي اعمر حلموش مجاهد المنطقة وصاحب الفضل عليها كما تقدم ـ لأنه هو الذي أنقذ زوجها الشيخ امبارك من قبل من القتل بسبب تهمة خيانته للثورة ـ قد جعل المتناص الذي نطقت به نايلة في حوارها مع جارتها لا لّة فطومة في محلّه المناسب داخل نسيج الرواية، ويعبّر عن شخصيتها القروية البسيطة التي تنتمي إلى البيئة الشعبية.

2. إنّ المهدي في الاقتباس الثاني هو شخصية دينية، ومن الطبيعي أن يكون حديثه ذا طابع ديني، كما أنّ رؤيته التي يتبناها هي رؤية دينية، وتبعا لذلك فإن الكاتب قد راعى هذا الجانب في إنطاقه بالمتناص الديني المناسب له، وهو ما أعطى وظيفة تدعيمية لنص الرواية.

ثالثا: الإيحاء (Allusion)

هو استيحاء المعنى من نصوص أخرى أصلية دون استشهاد أو اقتباس. وهو يُعدّ أكثر أهمية من الشكلين السابقين؛ لأنه يتطلب من القارئ إطّلاعا واسعا ودراية كبيرة بالموضوع وشيئا من الفطنة والبداهة حتى يستطيع اكتشافه. وفي ذلك يقول جينيت : "يتطلب الإيحاء من القارئ ذكاء وفطنة كي يكتشف ويتيقّن من أنّ هناك علاقة بين نص لاحق ونص آخر سابق عليه"[13]. ومن الأمثلة الدالّة عليه في رواية "الغيث " نذكر منها :

المقطع السردي الروائي	المقطع السردي القرآني	الدلالة
1. "لا يتوقع أحد ما يمكن للشيطان أن يوسوس في أذن الشيخ المريد الذي اختفى دون أن يترك أثرا". ص 33	﴿من شرّ الوسْوَاس الخنّاس الذي يُوَسْوِسُ في صدور النّاس منَ الجِنّة والنّاسِ﴾. (الناس، الآيتان 4،5)	يكتشف سكان القرية ذراع جدة الشيخ امبارك مخلوعة من قبله أثناء دفنها؛ لأنه كان يعتقد بخرافة أنّ من خلع ذراع درويشة في الليلة السابعة بعد دفنها وفتل بها الطعام ثم أكله بأعشاب معينة امتلك نفوذًا عظيمًا. فاعتبر السكان أنّ هذا التدنيس من قبل الشيخ لا يقوم به إلاّ مَن سكنه شيطان من الإنس والجنّ. فالمتناص هنا له وظيفة تدعيمية.
2. "أنهى الداعون صلاتهم برفع الأيدي نحو السماء وأبصارهم لاصقة بالزرقة الباعثة لليأس". ص 151	﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُم تَرْهَقُهم ذِلّةٌ ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون﴾. (المعارج، آية 44)	يدعو المهدي المصلين بالمسجد إلى إقامة صلاة الاستسقاء في مزار ضريح سيدي المخفي بعد أن أصاب الجفاف منطقتهم، لعلّ الله يستجيب لدعواتهم بنزول الغيث.هنا يشبّه الكاتب حالة المصلين المنتظرين لنزول المطر بحالة أهل القبور وهم ينتظرون في ذلّ ومسكنة ساعة الحساب يوم القيامة

1. لقد استوحى كاتب الرواية صورة تدنيس الأموات من الآية القرآنية التي تبيّن الخطر الذي يمثله الشيطان في إغواء الناس ودفعهم إلى المهالك. فالقارئ العادي يجد صعوبة في الاهتداء إلى النص الأصلي المستوحى، والذي أمتصّه النص الروائي حيث إنّه أحدث فيه تغييرًا جذريًا تركيبا وصياغة وسياقا، فأنتج منه بذلك دلالة جديدة.

2. يُحاول الكاتب في المتناص الثاني أن يشبّه مجتمع الرواية أثناء إصابة المنطقة بالجفاف وانتظار أهلها لنزول الغيث مثل الانتظار الرهيب يوم الحساب في دار القيامة. فهذه مشابهة فيها شيء من التعسّف والمبالغة؛ لأنّ الانتظار من الأحياء للرحمة من الله تختلف عن انتظار الأموات لها يوم الحساب، لكنها مشابهة مقبولة في الأدب ومن باحث يريد أن يؤسس نصه باستيحاء نصوص أخرى سابقة، ليؤكد خصوصيته واستقلاله في إنتاج نص ذي دلالة جديدة.

رابعا: الميتانص (Métatexte)

هو النمط الثالث من التعالي النصّي عند (جيرار جينيت)، ويُقصد به العلاقة المسماة عند القدماء بالتعليق أو الشرح (Commentaire) الذي يجمع نصا بنص آخر يتحدث عنه أو يستوعبه دون أن يذكره بالضرورة بل دون أن يسمّيه أحيانا. ويحدّده (جينيت) بقوله: "هو بكل بساطة علاقة التفسير والتعليق التي تربط نصا بآخر، يتحدث عنه دون الاستشهاد به أو استدعائه، بل يمكن أن يصل الأمر إلى حدّ عدم ذكره، إنها علاقة في أسمى صورها العلاقة النقدية"[14].

وتُعدّ رواية "الغيث" في بعدها الدلالي حقلا فسيحا يكشف فيه كاتبها عن إيديولوجيته ومعتقده عن طريق أفكاره، ونقد ما يناقضها في حوار بين الذات والآخر، فيتموقع النص بين هذه الذات وبين الواقع والتاريخ عبر نقده لمختلف أنماط الوعي التي عمل على تعريفها والكشف عنها. وفي هذا السياق سنبحث في التفاعل بين بنيات نص الرواية تقليدًا ومحاكاة أو نقدا ومعارضة لها. وفيما يلي نبيّن هذا التفاعل من خلال الميتانصين الآتيين :

البنية السردية الروائية	البنية السردية القرآنية	وظيفة الميتانص
1. "يا أيتها النفس الضالة ارجعي إلى ربك مرغمة، وقفي أمام باب السعير، وانتظري الحساب العسير". ص 13	﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفسُ المُطْمَئِنَّة ارْجِعِي إلى ربّك رَاضِيَةً مرضيةً فادْخُلِي فِي عِبَادِي وادْخُلِي جَنَّتِي﴾. (الفجر، الآيات: 27 ـ 30)	تغيير دلالة النص المرجعي الأصلي لتحقيق إنتاجية تجمع بين المرجع الأصلي ونقيضه
2. "أبٌ على شفا حفرة من الخبل يرضى بوضعيته البائسة ولا يتوقف عن الحمد والشكر". ص 195	﴿وكنتُم على شفَا حُفْرَة منَ النّار فأنقَذَكُم منها﴾. (آل عمران، آية 103).	تشبيه قدور بن موسى حالة أبيه المادية المتردية التي توشك أن تدفعه إلى الجنون بحالة قبيلتي الأوس والخزرج اللتين لولا إنقاذ الله لهما بنعمة دخولهما في الإسلام لماتتا على الشرك بالله

1. يرد الميتانص الأول على لسان المهدي، وهو على منبر المسجد إثر زلزال الحادي والعشرين من شهر ماي لسنة 2003 والفيضانات الكبيرة التي اجتاحت القطر الجزائري، فاعتبر ما حدث عقابًا شديدًا سلّطه الله تعالى على عباده الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد، وأنّ ما حدث ما هو إلاّ من مؤشرات قيام الساعة. فعكس معنى النص المرجعي القرآني، حيث جعل الله يتوعّد النفس المشركة به بالعقاب بجهنم يوم القيامة، وأنّ ترجع إليه مكرهة لتنال جزاءها عن سيئات أعمالها في الحياة الدنيا. وبهذا فقد قام الكاتب بإنتاج دلالة جديدة بقلبه لمعنى النص القرآني عبر الاستبدال ليجعله مناسبا للفكرة التي يريد التعبير عنها، وهي تصوير ما يحدث في الواقع الجزائري من أحداث في شيء من الحدّة والمبالغة.

2. في الميتانص الثاني يقلّب قدور بن موسى معنى الآية القرآنية التي تبيّن إنقاذ الإسلام لقبيلتي الأوس والخزرج من الموت الوشيك على الكفر لولا إيمانهما به[15]؛ حيث يسخط على والده الفقير الذي لا يتواني في إنجاب الأطفال والإكثار منهم من دون احتياط للأمر، فهو يقدم بهذا التصرف على الإصابة الوشيكة بالجنون. ولولا دخول القبيلتين في الإسلام لأوشكتا أن تظلا على الكفر، فكذلك الحال بالنسبة لوالد قدور، فلولا إيمانه بقضاء الله وقدره لأشرف على الجنون بسبب فقره وكثرة ذريته.

ونختم البحث في تناص رواية "الغيث" بالتراث الديني بحوصلة عامة لأهم الملاحظات والنتائج التي توصلنا إليها في دراسة الموضوع، وهي:

- إنّ هناك علاقة وشيجة بين رواية "الغيث" والتراث الديني، يفسّر ذلك تعدّد مادة الرواية من القرآن والحديث النبوي خاصة، وفي استيعاب هذه المادة يؤدي إلى وعي القارئ بحاضره وقراءته لماضيه واستشرافه لمستقبله.

- أشاد الكاتب معمار روايته على توظيف بنية النص الديني، والتي تشرّبتها الرواية على مستويات الأحداث والسرد والشخصيات بغرض توسيع المتن الروائي وإثرائه لإنتاج دلالات جديدة.

- عبرت الرواية من خلال تناصها مع التراث الديني عن الواقع المعيش للمواطن الجزائري، فأكدت على استمرار الماضي في الحاضر وأسقطت ما حدث في الماضي على ما يحدث في الحاضر، واتخذت من بعض الشخصيات التراثية رموزا لشخصية الإنسان الجزائري في الوقت الراهن.

- حضر التناص بكل أشكاله من استشهاد واقتباس وإيحاء، وكان الاستشهاد والاقتباس أوفر حظا، حيث تنوّعت مادتهما من القرآن والحديث النبوي. وفي قلّة توظيف الإيحاء ومحدوديته في الرواية يفقد التناص جانبا من فنيته كآلية لانفتاح نص الرواية على نصوص خارجة عنها، والتي عن طريقها يكشف الكاتب عن مهارته في تمثّلها واستيعابها.

- لقد صبغت المتناصات الدينية الكثيرة الرواية بصبغة خطابية وعظية، مما أخلّ نوعا ما بفنيتها وجمالها. كما اتّسمت الرواية برصّها لمجموعة من هذه المتناصات بوضعها جنب بعضها بشكل متراكم، تبدو للقارئ حشوًا يمكن الاستغناء عنه دون

إخلال بالمعنى الكلي للرواية، مثل ما هو واضح في صفحات : 12، 13، 14، 185، 235، 244 و245.

- هناك تكرار ملحوظ لبعض الآيات القرآنية أكثر من مرة في أماكن متفرقة في صلب الرواية، وهو ما يقلّل من قيمتها الفنية والجمالية. ونذكر منها على سبيل المثال: ﴿لا يُكلّف الله نَفْسًا إلاّ وُسْعَها﴾، صفحات: 14، 185، 245، و﴿صُمّ بكم عميٌ فهم لا يعْقِلُون﴾و ﴿لا خَوفٌ عَليهُم ولا هُم يَحزَنُون﴾ صفحتا 14، 185.

- إن الميتانص (Métatexte) الذي ورد في الرواية كان محدودًا بالمقارنة مع التناص (Intertextualité)، وكان يُستحسن الإكثار منه؛ لأنه يدفع القارئ إلى المساهمة في الكشف عن بنية النص الأصلي الخفي والمدمج في صلب الرواية. وهو في نظرنا أهمّ أنواع المتعاليات النصية.

- تعكس النهاية المأساوية للمهدي بطل الرواية موقف الكاتب الواعي بالتراث، والذي دعا إلى تجاوزه أو إعادة النظر فيه، بتشكيله من جديد حسب متطلبات العصر الحاضر.

- هناك أخطاء لغوية ومطبعية كثيرة وقعت في الرواية، حيث يستطيع القارئ العادي اكتشافها، ولا داعي لذكرها في هذا المقام؛ لأنّ الكاتب قادر على استدراكها. ويبدو أنه لولا ارتباطه بوقت وجيز محدّد لإنجاز الطبع، لاستَدرَك الشيء الكثير ممّا وقع فيه من أخطاء وهفوات.

الإحالات

1. محمد ساري: من مواليد 1 فيفري 1958 بشرشال، حاصل على شهادة الدراسات المعمقة من جامعة السوربون في 1981، والماجستير من جامعة الجزائر في 1992. أستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الجزائر. كاتب ومترجم. نشر ستّ روايات، وهي: *"على جبال الظهرة"* 1983، *"السعير"* 1986، *"البطاقة السحرية"* 1997، *"المتاهة"* (بالفرنسية) 2000، *"الورم"* 2002، *"الغيث"* 2007. وترجم من الفرنسية إلى العربية روايات : *"العاشقان المنفصلان"* لأنور بن عبد المالك 2002، *"الممنوعة"* لمليكة مقدم 2003، قسم البرابرة لبوعلام صنصال 2006. كما نشر مقالات نقدية ودراسات أدبية عديدة. انظر: محمد ساري، *"الغيث"*، منشورات البرزخ، الجزائر 2007، صفحة الغلاف، رابح خدوسي، *"موسوعة العلماء والأدباء"* الجزائريين، دار الحضارة، الجزائر 2002، ص 185.
2. ابن تومرت (473 ـ 524هـ / 1080 ـ 1129م): هو محمد بن عبد الله بن تومرت المعروف بمهدي الموحدين. وُلد في جبل السوس بالمغرب، سافر إلى الأندلس ومصر والحجاز. واتصل عن قرب بآراء ابن حزم والغزالي وتأثّر بهما. ثم أخذ بعد عودته إلى المغرب يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في تشدّد ملحوظ. ولاقى في سبيل ذلك عنتا. وكانت له محاجات طويلة تأييدًا لدعوته. استنكر المعتقدات وطريقة الحكم، وكوّن لنفسه أتباعا علمهم ونظمهم وسماهم المؤمنين أو الموحدين، وبدأ يحمل على دولة المرابطين ويضع أساس دولة الموحدين التي أقامها تلميذه عبد المؤمن. وكانت دعوته سياسية دينية سُفكتْ فيها دماء كثيرة. آراؤه مزيج من تعاليم الشيعة وأهل السنة. من مؤلفاته: كتر العلوم، أعزّ ما يطلب. ويُروى عنه أنه كان يلجأ إلى الوعيد والتهديد والإقناع للوصول إلى أغراضه، وعندما يعجز في ذلك، كان يستعمل الحيلة والمكر وحتى سفك الدماء، ونذكر في ذلك على سبيل

المثال: "إنه أخذ يوما قوما من أتباعه، ودفنهم أحياء وجعل لكل واحد منهم تنفسا في قبره، وقال لهم: إذا سُئلتم فقولوا: قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقا من مضاعفات الثواب على جهاد لمتونة (قبيلة المرابطين) وعلوّ الدرجات التي نلنا بالشهادة، فجدّوا في جهاد عدوّكم، فإنّ ما دَعَاكم إليه الإمام المهدي صاحبكم حق. وقال لهم: إذا قلتُم ذلك أخرجتُكم وكانت لكم المنزلة عندي أعلاها وأسنَاها، وعاهدَهم على ذلك.. ثم رجع إلى محلّته وقد ذهب أكثر الليل، فقال للأشياخ الموحدين: يا معشر الموحدين، أنتم حزب الله وأنصار دينه وأعوان الحق، فجدّوا في قتال عدوّكم فإنكم على منهاج الحق، وأنتم على بصيرة من أمركم، وإن كنتم ترتابون فيما أقوله لكم فاذهبوا إلى موضع المعركة، وأسألوا من قُتل اليوم من إخوانكم يُخبروكم بفضل جهادكم وعظيم ثوابكم عليه في الآخرة، فأتى إلى المقْتَلة، ثم نادى برفع صوته: يا معشر الشهداء، خبِّرونا ما لقيتم من الله عزّ وجلّ. فقالوا : وجدنا عند الله تعالى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فلما سمعوا الجواب، رجعوا إلى قومهم وقبائلهم، فقالوا: قد سمعنا ما أجاب به إخواننا الذين استُشهِدوا منّا، وما شاهدوا من فضل الله تعالى وجزيل ثوابه، فافتتن بذلك كافة الناس، فأتى، فأغلق على أصحابه الذين دفنهم المَنَافِس التي كانت تُركتْ لهم، فماتُوا من ساعتهم غمّا، فعل ذلك بهم لئلا يخرجوا فيُسرّوا إلى خاصّتهم ما فعله بهم". ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، دون ذكر اسم دار النشر، فاس، المغرب 1885، ص 125. نقلا عن: رشيد بورويبة، ابن تومرت، ترجمة : عبد الحميد حاجيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982، ص 120، انظر : *"الغيث"* ، ص 130 ـ 131.

3. Kristeva, *"Bakhtine : le mot, le dialogue et le roman"*, Revue *"Critique"*, Paris, France n° 230, 1967.

4. *"Palimpsestes"*, éd. du Seuil, Paris, France 1982, p. 7.

5. Ibid, pp.8-12.

6. لعموري زاوي، *"بنية النص السردي في دنا فتدلى"* لجمال الغيطاني، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر 2001_2002، ص 50.

7. انظر: ابن منظور، *"لسان العرب"* ، مجلد 2، ط 2، دار صادر، بيروت، لبنان 1992، ص 175.

8. انظر: Palimpsestes, p.8

9. صحيح مسلم، ج 1، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، مصر (د.ت)، ص 354.

10. *"صحيح البخاري"* ، دار ابن الهيثم، القاهرة، مصر 2003، ص 21.

11. Gérard Genette, *"palimpsests"*, p. 8.

12. محمد بلقاسم بن جيدل، التفاعل النصي في رواية *"عمر يظهر في القدس"* ، مذكرة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر 2006، ص 107.

13. 14. Palimpsestes, p.8.

15. انظر جلال الدين السيوطي *"تفسير الجلالين"* دار الشعب، القاهرة، 1970، ص 65.